

الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

● الجناس :

لم يعرفه ابن أبي الإصبع بمعناه العام ، بل اهتم بتقسيمه ، ثم أخذ في تعريف كل فرع من فروعه عند التمثيل لها^(١) ، وقد عرفه كثير من العلماء ، نذكر منهم ابن المعتز وقد عرفه بقوله : « هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام »^(٢) .

وقدامة بن جعفر : وقد عرفه بقوله : « أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة »^(٣) .

وأبا هلال العسكري ، وقد عرفه بقوله : « أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتهما في تأليف حروفها حسبما ألف الأصمعي في كتاب الأجناس »^(٤) .

وضياء الدين ابن الأثير ، وقد عرفه بقوله : « إن حقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً »^(٥) .

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٩٦ وما بعدها .

(٤) الصناعتين لأبي هلال العسكري .

(٥) المثل السائر لابن الأثير ج ٣ .

وابن سنان الخفاجي ، وقد عرّفه بقوله : « وهو أن يكون بعض الألفاظ مشتقاً من بعض وإن كان معناهما واحداً ، أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفاً ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى »^(١) .

والخطيب القزويني ، وقد عرّفه بقوله : « هو تشابههما في اللفظ »^(٢) ، وغير هؤلاء كثير كالرمانى ، ولم يخل تعريف منها من النقد ، والأقرب إلى الصواب ما ذكره الخطيب مع اختصاره .

والأستاذ علي الجندي يفضل تعريف العلوي وهو : « اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما »^(٣) .

ولست أدري ما الذي يحملنا على تفضيل هذا التعريف بعد ذكر تعريف الخطيب وهو أقرب من تعريف العلوي إذ يقال : « ما المراد بوجه من الوجوه ! وما أكثر الوجوه التي يشترك فيها اللفظان ولا يقال إنهما متجانسان كاشتراك لفظين في الإسمية أو الفعلية ... وهكذا .

وكل ما يؤخذ على الخطيب أنه أغفل اختلافهما في المعنى ، ولهم مع ذلك تقسيمات كثيرة للجناس ، لا أراها أنها تهمنا هنا بقدر ما يهمنا وروده في القرآن ، ووظيفته في جمال التعبير .

● من صور الجناس في القرآن :

ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ (الروم: ٥٥) .

الساعة الأولى : القيامة ، والثانية : المراد بها اللحظة من الزمن ، وهذا يسمى عندهم الجناس التام المماثل .

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٧٣ .

(٢) الإيضاح : ٣٥١/٣ .

(٣) الطراز للعلوي : ٣٥١/٣ .

وقد أثار ابن أبي الحديد جدلاً حول عد هذه الآية من الجناس ^(١) وذلك في تعقيبه على رأي ابن الأثير بجعلها من الجناس ، ولكن الحق أن في الآية جناساً لاختلاف معنى اللفظين .

قال السيوطي : « قيل : ولم يقع منه - أي الجناس التام المتماثل - في القرآن سواه - أي هذه الآية المذكورة - واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر موضعاً آخر هو قوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴾ ١٢ يُقَلِّبُ اللَّهُ أَلِيلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَرِ ﴾ (النور: ٤٤، ٤٣) ^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ١٣ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء: ٨٠، ٧٩) فالجناس بين : يسقين ويشفين ، وهذا من الجناس المصحف ، وضابطه أن تختلف الحروف في النقط .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ ١٤ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (الصفات: ٧٢، ٧٣) .

والجناس بين مُنْذِرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وهذا من الجناس المحرف ، وضابطه أن يقع الاختلاف في الحركات .

وقد اجتمع المحرف والمصحف في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ تَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف: ١٠٤) .

ومن الجناس قوله تعالى : ﴿ وَالتَّتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ ١٥ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (القيامة: ٢٩، ٣٠) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (النحل: ٦٩) .

والجناس بين الساق والساق ، وكلية وكل ، وهذا من الجناس الناقص وضابطه أن يكون الاختلاف في عدد الحروف .

(١) الفلك الدائر على المثل السائر ، ابن أبي الحديد ص ٣ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي : ٩١/٢ .

ومنه المذيل ، وضابطه أن تكون الزيادة بأكثر من حرف كقوله تعالى :
﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ ﴾ (طه: ٩٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (القصص: ٤٥) ، و﴿ مَنْ ءَامَنَ
بِإِلَهِ ﴾ (البقرة: ٦٢) ، و﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ ﴾ (العاديات: ١١) .

ومنه المضارع ، وضابطه أن يختلفا بحرف مقارب في المخرج كقوله تعالى :
﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ (الأنعام: ٢٦) .

فإن اختلفا بحرف غير مقارب فهو اللاحق ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ
هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (الهمزة: ١) .

ومنه المرفق : وهو ما تتركب من كلمة وبعض كلمة كقوله تعالى : ﴿ جُرْفٍ
هَارٍ فَاتَّخَذَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (التوبة: ١٠٩) .

ومنه اللفظي : بأن يختلفا بحرف مناسب للآخر مناسبة لفظية كالضاد
والطاء في قوله تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾
(القيامة: ٢٢، ٢٣) .

ومنه القلب : بأن يختلفا في ترتيب الحروف كقوله تعالى حكاية عن
هارون عليه السلام : ﴿ فَرَقْتُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (طه: ٩٤) .

ومنه الاشتقاق : وهو أن يجتمعا في الأصل الاشتقاقي ويسمى المقتضب
كقوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (الواقعة: ٨٩) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْدَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَئِيمِ ﴾ (الروم: ٤٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ ﴾ (الأنعام: ٧٩) .

ومنه تجنيس الإطلاق : بأن يتفقا من حيث الظاهر مع اختلاف المادة
المشتق منها . كقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ (الشعراء: ١٦٨) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَىٰ سَوْءَ أَخِيهِ ﴾ (المائدة: ٣١) .

فأنت ترى أنهم عثروا في القرآن الكريم على أمثلة لكل فروع الجناس
وما شاكلة .

وبقي من الجناس نوع سموه «مستوفى» وهو ما اختلف لفظا الجناس فيه بين الإسمية والفعلية ، ويقابله المماثل وهو ما اتحد طرفاه : إسمية أو فعلية .
وقد قسم ابن أبي الإصبع الجناس إلى قسمين كبيرين ، سمى أحدهما : جناس مزوجة ، والثاني : جناس مناسبة^(١) .. وفرع منهما عشرة فروع ، ما بين اللفظي والمعنوي .

أما جناس المزوجة فقد مثل له بأمثلة المشاكلة : ﴿ وَجَزَأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى: ٤٠) .

﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(البقرة: ١٩٤) .

وسبب هذه التسمية أن الله تعالى - كما قال هو - سمى جزاء السيئة سيئة ، وجزاء الاعتداء اعتداء ليكون في الكلام مزوجة ، واشترط المثلية في الاعتداء توخياً للعدالة .

أما ما سماه جناس المناسبة ، فقد مثل للفظي منه بأمثلة جناس الاشتقاق وهي قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ (الأنعام: ٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَقْرَرْتُهُمْ وَلِلَّيْلِ الْقَبِيرِ ﴾^(٢) .

● الجناس يجمع فنوناً أخرى :

رأينا أن أبي الإصبع قد مثل لما سماه جناس المزوجة بأمثلة هي بعينها أمثلة المشاكلة ، ومنه نستطيع القول بأن الجناس في القرآن قد يجمع المشاكلة .

كذلك فإن جناس الاشتقاق قد جامع فيه الطباق في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُوا ﴾ (المائدة: ٤٤) .

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩) .

وجامع الجناس الترديد في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (الحشر: ٢٠) .

والترديد هو إيراد الكلمة بعينها مرتين ، وبعضهم يخصصها بالشعر ، ولكن العلوي وابن أبي الإصبع أجازا مجيء ذلك في النثر .

ومن أمثله عند ابن أبي الإصبع قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ نُؤْتِيَ مَثَلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٦ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الروم: ٧، ٦) .

وقوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُّحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ (التوبة: ١٠٨) .

ومن العجيب أن الآية الثانية جمعت بين ثلاثة فنون من فنون البديع في موضع واحد باعتبارات مختلفة :

١- الطباق حيث وقع العلم منفياً مرة ومثبتاً أخرى ، فهو من طباق السلب .

٢- الجناس لتماثل اللفظين « يعلمون » ، « يعلمون » : فهو من جناس الاشتقاق .

٣- الترديد حيث تكرر اللفظان وكل منهما متعلق بمعنى مختلف .

وقد يجمع الجناس التعطف ، الذي هو إعادة اللفظة بعينها غير مشروط اجتماعهما ومثاله قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبَّصُونَ ﴾ (التوبة: ٥٢) .

فقد أعيدت الكلمة هنا أربع مرات : « ترَبصون بنا » ، « ونحن نترَبص بكم » ، « فترَبصوا » ، « إِنَّا معكم مترَبصون » . ولا شك أن بين هذه المواضع الأربعة جناس اشتقاق .

ويجامع الجنس التصدير ، ومن أمثلة ذلك في الكتاب الحكيم قوله تعالى :
﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (الأنبياء: ٤١) .

● وظيفة الجنس :

للجنس وظيفتان ، إحداها من حيث المعنى ، والأخرى من حيث اللفظ ..
أما التي من حيث المعنى فيقول عنها الإمام عبد القاهر في الأسرار :
« وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً ، ولا سجعاً حسناً حتى يكون
المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى لا تبغي به بدلاً ،
ولا تجد عنه حوالاً ، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه ، وأعلاه وأحقه
بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه .. وذلك كما
يُمثّلون به أبداً من قول الشافعي رحمه الله - وقد سئل عن النبيذ - فقال : « قد
أجمع أهل الحرمين على تحريمه »^(١) .

ويقول : « واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس ، وجعلتها العلة في
استيجابه الفضيلة ، هي : حسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة »^(٢) .

ومعنى هذا أن الكلمة المكررة في التجنيس مع أن الصورة توهم السامع في
أول أمرها أنها لم تأت بجديد ، بل هي مكررة لمعنى سابقها ، فإذا حصل
للسامع منها المعنى الجديد جاء ذلك من غير مظانه ومن حيث لم يتوقعه ،
وفي ذلك متعة للنفس ، وربح من غير انتظار .

وقال العلوي : « هو عظيم الموقع في البلاغة ، جليل القدر في
الفصاحة »^(٣) .

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

(٣) الطراز للعلوي : ٣٥١/٣ .

ويقول ابن السبكي : « وكفى التجنيس فخراً قوله عليه الصلاة والسلام :
« غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله ، وعصية عصت الله » .. ويرى بعضهم
أنه أشرف الأنواع اللفظية »^(١) .

وأما وظيفته من حيث اللفظ فإنه يحمل السامع على الإصغاء ، كما يقول
صاحب كنز البلاغة (عماد الدين إسماعيل بن الأثير الحلبي من علماء القرن
الثامن الهجري) : « لم أر من ذكر فائدة الجناس وخطر لي أنها الميل إلى
الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاءً إليه ، ولأن اللفظ
المشترك إذا حُمِلَ على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق
إليه »^(٢) .

وفي هذا النص بيان للوظيفة اللفظية ، وإشارة إلى الوظيفة المعنوية .

● مقومات الجمال في الجناس :

وإذا أمعنا النظر في جمال الجناس حين يقع جميلاً أمكن أن نرجعه إلى
ثلاثة أسباب :

١- تناسب الألفاظ في الصورة كلها أو بعضها ، ومما لا شك فيه أن التوافق في
الصورة واقتران الأشباه والنظائر بعضها ببعض تميل إليه النفوس بالفطرة ،
وتأنس به وتغبط ويطمئن إليه الذوق لأنه نظام وانسجام وائتلاف ، ويخلع
على النفوس راحة وبشاشة ، وهدوءاً وقراراً .

٢- التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً تاماً أو ناقصاً
فيطرب الأذن ، ويهز أوتار القلوب .

٣- ذلك هو العمل الأخاذ الذي يسلكه « المجنس » لاختلاف الأذهان واستمالة
الأفهام^(٣) .

(١) شرح عقود الجمان ص ١٤٩ .

(٢) شرح السبكي على التلخيص : ٤١٢/٤ .

(٣) فن الإسجاع دكتور علي الجندي - ص ٢ (بتصرف في الصياغة) .

وفي هذا يقول عبد القاهر : « .. وقد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاه .. ويوهمك كأنه لم يزدك شيئاً وقد أحسن الزيادة ووفاه »^(١) .

ولهذا فإن الجنس من مقتضيات الأحوال ، وموجبات البلاغة وشرط ذلك أن لا يكون الجنس متكلفاً^(٢) .

● منزلة جناس القرآن :

وقد جاء الجنس في القرآن الكريم على أحسن صورة وأجمل موقع لا تكلف فيه ، ولا تصنع ، ولا جور على المعنى لحساب اللفظ .. ولا اقتسار للفظ بدون دلالة حسنة .

سواء في ذلك التام منه أو الناقص ، وسواء ما كان جناساً خالصاً ، أو اختلط بغيره من ألوان البديع ، فليس فيه موضع نازل في معناه ، أو مستكره في لفظه بل هو - كله - جار مع طبيعة الأسلوب القرآني في قوته وجزالته وبلاغته وفصاحته .

وإن شئت فتأمل هذه المواضع مع ما سبق من نصوص ورد فيها الجنس في القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ ﴾ (التوبة: ١٢٧) .

﴿ تَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (النور: ٣٧) .

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزَيِّبُ الصَّدَقَاتِ ﴾ (البقرة: ٢٧٦) .

فإنك تجد فوق روعة المعنى وسحر الجرس ، مناسبة بين ركني الجنس جد رائعة ، وهذه المناسبة لو لم يكن للجناس وظيفة سواها لكانت كفيلاً بأصالته وحسنه : « انصرفوا - صرف » - « تنقلب - القلوب » - « الربا - يربي » وهكذا في كل جناس أنت واجد خلاصة وسحراً ، وأسرّاً للسمع والفكر معاً .

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني : ٥ .

(٢) انظر الصبغ البديعي - الدكتور أحمد إبراهيم موسى ص ٤٩٥ .

وهل أنت واجد في هذه إلا جمالاً وحسناً ، والآن فانظر إلى سجع الناس المتكلف لترى الأصالة هنا - أي في القرآن - والزيف فيما عداه ، إلا مَنْ عصم الله .

٢- ائتلاف اللفظ مع المعنى :

عرّفه ابن أبي الإصبع فقال : أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها ، غير لائقة بمكانها ، كلها موصوف بحسن الجوار ، بحيث إذا كان المعنى غريباً فجاً كانت ألفاظه غريبة محضة ، وإذا كان المعنى مولداً كانت الألفاظ مولدة ، وإذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كذلك ، وإذا كان متداولاً كانت الألفاظ معروفة مستعملة^(١) .

● ائتلاف اللفظ مع المعنى سمة للقرآن كله :

هذا ملخص ما ذكره المؤلف .. ونحن إذا نظرنا إلى عنوان الباب كان القرآن كله مثلاً له ، لأن الألفاظ في القرآن مؤتلفة مع معانيها لم يند منها موضع واحد ، وعلى هذا فإن إيراد الأمثلة فيه شيء من التسامح ، هذا بالنظر إلى عنوان الباب كما قلنا .

أما بالنسبة للأحوال التي ذكرها كشرح وتعريف للباب ، فإن التمثيل واجب لبيان الأقسام الواردة في التعريف ، ولم يختص ابن أبي الإصبع بالكلام عن هذا الأصل بل تحدث عنه كثيرون من العلماء كابن سنان وابن الأثير والعلوي .

وقد مثل ابن أبي الإصبع له بقوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُوْا تَذَكَّرْ يٰٓيُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُوْنَ حَرَضًا أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْهٰلِكِيْنَ ﴾ (يوسف: ٨٥) .

وقد وجّه النص بما ملخصه :

فإنه سبحانه لما أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي التاء - إذ الواو والباء أعرف منها عند العامة وهما أكثر دوراً على الألسنة - لما أتى بها أتى بأغرب صيغ

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٧٧ .

الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ، لأن « كان » وبقية أخواتها أعرف عند الكافة من « تفتأ » وأكثر منها استعمالاً .. وكذلك « حرصاً » فإنها أغرب الألفاظ الدالة على الهلاك ، فاقترضى حسن النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال ، توخياً لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ، ولتلاءم الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم ويتضح هذا إذا ما قورن بمثله ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ ﴾ (النور: ٥٣) .. فلما كان هذا الموضع كل ما فيه من ألفاظ معروفاً مستعملاً قال : « أقسموا » ، و« بالله » فلم تأت لفظة غريبة تفتقر إلى ما يشاكلها في الغرابة ويلائهما .

ومن أمثله أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ (هود: ١١٣) . لأن الركوب إلى الظالم دون فعل الظالم نفسه ، ولذلك وجب أن يكون العقاب عليه دون عقاب الظالم ، ولهذا قال سبحانه : « فتمسكم النار » ، فالركوب إلى الظالم يناسبه مس النار للراكن ، فلم يقل : « فقد دخلوا النار » - مثلاً - لأن المتبادر إلى الفهم أن مس النار أول ملاقة الجسم لها .

● المس والدوق :

هذا وقد جاء « المس » في غير هذا الموضع مراداً به العذاب المؤلم ولا يكون إلا بالدخول في النار والمكث فيها ، كقوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر: ٤٨) .

فالمعول - إذن - على القرائن كما يقول ابن أبي الإصبع نفسه : « وإذا احتملت اللفظة احتمالات صرف منها إلى ما تدل عليه القرائن »^(١) .

وحتى في هذه الآية - ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ - قد يبلغ ائتلاف اللفظ مع المعنى ومع اللفظ منتهاه ، فإذا كان المس أول ملاقة الجسم للنار ، فإن الإذاقة

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٧٨ .

هي أول ملاقاته المطعوم للسان - إذن - فهنا مقابلة أسرة .. ولعل السر البلاغي في هذا التعبير أن إذاقة مس سقر كاف في الإيلام فما بالك بدخولها ؟ وبهذا تنتهي أمثلة ابن أبي الإصبع لهذا الباب من القرآن الكريم ، والقرآن - بعد - مشحون بهذه الصور الأسرية ، فلنورد بعضها فيما يأتي :

● ذل اليهود ومسكنتهم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ (البقرة: ٦١).

هذا إخبار من الله تعالى عن اليهود لما عصوا الله وكفروا به ، وقتلوا الأنبياء ظلماً وعدواناً ، وخلاصة هذا الإخبار أن اليهود أذلاء وضعفاء أينما كانوا وحيثما حلوا ، جزاء لهم على جرائمهم المنكرة ، فلازمتهم الذلة والمهانة ، وجاء التعبير وافيًا بالغرض أيما وفاء .

يقول الزمخشري : « جُعِلَتِ الذِّلَّةُ محيطاً بهم مشتملة عليهم فهم فيها كما يكون في القبة مَنْ ضُرِبَتْ عليه ، أو أُلْصِقَتْ بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه »^(١) .

ويفهم من هذا معنيان : الإحاطة ، واللزوم ، وفي التعبير معنيان آخران ذلك أن الضرب في نفسه مشعر بذل المضروب فاختر هنا ليناسب لفظة « الذل » المفعولة عليهم .

والضرب من شأنه إيلام المضروب وإيجاعه ، وهذا يشعر بالأثر السيئ الذي يجده اليهود من ملازمة الذلة والمسكنة لهم ، وإحاطتهما بهم . وهذا الضرب مجاز طريقه الاستعارة التمثيلية أو المكنية ، ويجوز حمله على الاستعارة التصريحية التبعية .

وهذا من باب مناسبة اللفظ للمعنى ، وفي قوله تعالى بعد هذا مباشرة : ﴿ وَيَأْتُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٦١) مناسبة كذلك ، فإن ضرب الذلة والمسكنة عليهم يناسبه : ﴿ وَيَأْتُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٠٩/١ .

● غرابة اللفظ لغرابة المعنى :

ويدخل في هذا الباب من غرابة الألفاظ لغرابة المعاني قوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ ﴾ (المدثر: ٥٠، ٥١).

وقوله تعالى : ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الصفات: ٦٥) .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۖ ﴾ (النجم: ٢٢) .

فـ « القسورة » الصياد أو الأسد ، وهما أكثر من لفظ : « قسورة » دوراً على الألسن ووروداً في الاستعمال ، وهذا مناسب لغرابة نفور العصاة عن الدعوة إلى الطاعة والهدى .

و« رءوس الشياطين » لم يستعمله أحد لأنه لم يقف على حقيقته فجاء مثلاً لثمار أغرب شجرة تنبت في أصل الجحيم .

وقسمة الإناث لله سبحانه والذكور للكافرين قسمة غريبة فدل عليها بأغرب لفظة عرفتها لغة العرب .

وهذا ميدان واسع في القرآن الكريم يظهر في حقيقته ومجازه ، وما أردنا بما ذكرنا إلا التدليل والتمثيل .

٣- المساواة^(١) :

عرّفها ابن أبي الإصبع بقوله : « أن يكون اللفظ مساوياً للمعاني لا يزيد عليه ولا ينقص عنه »^(٢) .

ثم يعلق عليها فيقول : « وهو من أعظم أبواب البلاغة ، بل هو بعينه نفس البلاغة »^(٣) .

(١) تابعنا ابن أبي الإصبع الذي تابع قدامة بن جعفر في تفريع هذه الأنواع التي يعدها من ائتلاف اللفظ مع المعنى .

(٢، ٣) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٧٩ .

ومعروف أن المساواة من مباحث علم المعاني - وهذا هو شأن البديع - إنما هو في معظم أبوابه مسائل منتزعة من علمي المعاني والبيان ، وللعلماء مذهبان في أسلوب القرآن .

فالجمهور يرى أن القرآن فيه الإطناب والمساواة والإيجاز .. وعرفوا الأول بأن الألفاظ فيه تزيد على المعنى زيادة تؤدي فائدة ، والمساواة قد سبق تعريفها .

أما الإيجاز .. فأن تكون الألفاظ أقل من المعنى المفهوم منها ، وقسموا الإيجاز إلى إيجاز حذف ، وإيجاز قصر .

وقد مثلوا للمساواة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠) .

قال ابن أبي الإصبع في بيان المقصود من هذه الآية : « إن الله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن الممدوحات المنجيات ، وينهي عن جميع القبائح الموبقات المذمومات ، فأخرج المعنى في لفظ هو طبقه ، وقالب هو قدره وصورة مساوية لمعناه لا تزيد ولا تنقص عن فحواه ، ومصدق ذلك أن أي لفظة لو حذفها من ألفاظ الآية اختل شيء من المعنى بحذفها اختلالاً ظاهراً... وكذا إذا زيد في ألفاظها لفظة حصل من الاختلاف بالزيادة ما حصل منها عند النقص ، ولا معنى للمساواة غير هذا^(١) .

● نقد وتحليل :

ولكن الحق أن الآية ليست من قبيل المساواة ، بل هي شاهد ناطق على الإيجاز وهذا نلمحه من ناحيتين :

من حيث الصناعة النحوية فإن فيها حذفاً في مواضع لا أظن أن المؤلف

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٠ .

يخالفنا فيها ، وتلك المواضع هي : حذف معمول « يأمر » - حذف معمول المصدر « إيتاء » - حذف معمول « ينهي » - حذف معمول « تذكرون » .
هذه الحذوفات وإن كانت كثيرة في الأسلوب القرآني ، فإنها تنقل الآية من شاهد المساواة إلى شاهد الإيجاز بالحذف .

ومن ناحية دلالة الكلمات أنفسها .. فإن « العدل » تحته أفراد ، وكذلك « الإحسان » و « الفحشاء » تحتهما أفراد ، وكذلك « المنكر » و « البغي » ، فهذه أسماء جوامع دالة على كثير وهذا ينقل الآية من شاهد المساواة إلى شاهد الإيجاز بالقصر .

● ابن أبي الإصبع يناقض نفسه :

وكلام ابن أبي الإصبع نفسه دليل على أن الآية فيها إيجاز قصر حيث يقول : « إن الله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن المنجيات الممدوحات ، وينهي عن جميع الموبقات المذمومات » . فكيف يستقيم بعد أن يقال إن الآية من قبيل المساواة ؟

ومن شواهد المساواة أيضاً - حسبما ذكره - قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَتَٰزُؤْاْ آٰءٰلِىٓ مَآءٍ ۚ وَيَسْمَآءُ آٰءٰلِىٓ غَيْضِ ۚ اَلْمَآءُ وَقُضِىَ ۚ اَلْأَمْرُ وَاَسْتَوَتْ عَلَى ۚ الْجُودِىِّ ۚ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِيْنَ ۝٤٤ ﴾ (هود: ٤٤) .

وهذه الآية كآختها شاهد إيجاز وليست شاهد مساواة .

وإني لأعجب لابن أبي الإصبع إذ أورد هذه الآية في باب المساواة وهو نفسه يعلّق عليها تعليقاً واضحاً بأنها من باب الإيجاز ، فهو يقول : « فإنه سبحانه وتعالى أراد اقتصاص هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه فجاء بها كما ترى مرتبة الألفاظ والجمل حسبما وقع » .

فمن هذا النص تعلم أن ابن أبي الإصبع قد سلك الآية في موضعها اللائق بها من البلاغة والإيجاز وحسن النسق .

وبعدها مباشرة يقول : « فإن قيل لفظة : « القوم » زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة لأنها إذا طرحت استقل الكلام بدونها بحيث يقال : « وقيل بعداً للظالمين » . قلت : لا يستغنى الكلام عنها » .

ثم أخذ في بيان أصالة لفظة « القوم » في موضعها هنا فوقَّ أيما توفيق^(١) . والذي نأخذه عليه اضطرابه في نسبة الآية إلى المساواة مرة ، والإيجاز مرة أخرى ، وكونها من الإيجاز أمر لا يحتاج إلى دليل .

ثم أخذ يبرر هذا الخلط والاضطراب فقال : « واعلم أن البلاغة قسمان - كما قيل - البلاغة إيجاز من غير اختلال وإطناب من غير إملال ، والمساواة معتبرة في القسمين معاً » .

● والسؤال الآن :

كيف تكون المساواة معتبرة من قسمي الإيجاز والإطناب .. وعلى أي أساس يمكن فهم هذا التقسيم وبين الأقسام الثلاثة حواجز وضوابط لا تسمح بالتداخل بينها ؟ إن في ما يقول ابن أبي الإصبع خروجاً عن إجماع العلماء .

ثم تورط أكثر وأكثر عندما راح يطبق فكرته الغريبة هذه على نصوص القرآن ، وهذا يظهر مما يأتي :

قال : « فما جاء من قسم الإيجاز وهو موصوف بالمساواة ! قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩) ، فإن معنى هذه الجملة جاء في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (الإسراء: ٣٣) .

ثم قال : « لكن الأول إيجاز والثاني إطناب .. وكلاهما موصوف بالمساواة »^(٢) .

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ .

وفضلاً عن هذا الخلط والاضطراب فإننا نرى في كلامه ضعفاً حيث يرى أن معنى الآية الثانية متفق مع معنى الآية الأولى - وظاهر أن معنى الآية الأولى بيان أن « القصاص من القاتل » يُضعف رغبة الناس في الاعتداء بالقتل، فتحفظ الحياة بصون الدماء .

ومعنى الآية الثانية هو تشريع يبيح لولي المقتول المطالبة بالاعتصاص من القاتل مع الاقتصار في الدعوى على المجرم الحقيقي لا يتعداه إلى سواه .
فهل بعد هذا يقال : إن معنى الآية الأولى جاء في الآية الثانية ؟ وعلى أي أساس أيضاً يدعى الاتحاد بين معنى الآيتين ؟!

٤ - الإرداف :

وهو مفرعٌ كذلك عن ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وعرفوه فقالوا : أن يريد المتكلم معنى فلا يُعبّر عنه بلفظه الموضوع له ، ولا بلفظ الإشارة الدال على المعاني الكثيرة ، بل بلفظ هو ردف المعنى الخاص وتابعه قريب من لفظ المعنى الخاص قرب الردف من الرديف ^(١) .

ومنه في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (هود: ٤٤)، وحقيقة ذلك : وهلك مَنْ قضى الله بهلاكه ، ونجا مَنْ قضى بنجاته .

وإنما عدل عن هذه الحقيقة إلى لفظ الإرداف لما فيه من الإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمرٍ أمر مطاع ، وقضاء مَنْ لا يُرد قضاؤه ، والأمر يستلزم أمراً وقضاؤه يدل على قُدرة الأمر به ، وطاعة المأمور تدل على قدرة الأمر وقهره وأن الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضان على طاعة الأمر ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص ^(٢) .

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٥٦﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٦) .

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٣ .

قال : « فإن هذا الكلام عُدِلَ فيه عن المعنى الخاص في موضعين توخيًّا للمناسبة والتسجيع لأن المعنى الخاص في الموضعين أن يقال : لأخذناه أخذًا شديدًا وأهلكناه ، لكن هذه العبارة خالية من المناسبة لما تقدّم هذين الموضعين وما تأخّر عنهما ، ولما كانت المناسبة والتسجيع أمرًا مطلوبًا عدل عن اللفظ الخاص الذي لا يعطي ذلك إلى لفظ يعطيه مع جزالة فيه »^(١) .
وأقول : إن المواضع التي ذكرها شواهد للإرداف لا تخرج عن الاعتبارات الآتية :

- ١- إيجاز القصر .. وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ وقد جرى هذا التعبير مجرى الحكمة لإجازة لفظه ووفرة معناه .
- ٢- الكناية عن الصفة .. وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَنَصَرْتُ الْأَلْطَفَ ﴾ (الصافات: ٤٨ ، سورة ص : ٥٢ ، الرحمن : ٥٦) ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٦) لأن الأولى كناية عن العفة ، والثانية كناية عن الهلاك .
- والوتين : نياط القلب إذا قُطِعَ مات صاحبه^(٢) .
- ٣- الاستعارة التمثيلية .. وذلك في قوله تعالى : ﴿ لَا أَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ شبه حاله - سبحانه - في سيطرته عليه بحال مَنْ يمسك يمينه فلا يستطيع دفعًا ولا فوتًا .

٦- التمثيل :

وهذا مفرّع كذلك عن ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وقد عرفه ابن أبي الإصبع فقال : « هو أن يريد المتكلم معنى فلا يُعبّر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظي الإشارة ولا الإرداف بل بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلاً ... »^(٣) .

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٤ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/ ٤٨٦ .

(٣) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٥ .

ومنه : ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ (هود: ٤٤) فإن حقيقة ذلك : وجلست على هذا المكان ، فعدل عما فيه زيغ إلى ما لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة ولا اضطراب ، فإن بهذا الجلوس تسكن قلوب أهل السفينة فحصل تمام الأمن وتمام السكينة ، ولا يحصل هذا من قولنا : « جلست » ، فلذلك عدل عن لفظ الحقيقة إلى لفظ التمثيل .. هذا معنى من معاني التمثيل وخلاصته : إيثار لفظ مكان آخر ، ليس أحدهما مجازاً .

● معان أخرى للتمثيل :

ومعنى آخر مثلوا له بقوله تعالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧).

فإن ألفاظ هذه الآية ومعناها تمثيل مجازي أتى به لتبيين به حقيقة أمر مراد ، لأنه لما كان هؤلاء المحدث عنهم بذلك لا ينتفعون بما يسمعون من الزواجر ، ولا يرتدعون بما يشاهدون من الآيات .. كان امتناعهم عن ذلك بختم وغشاوة حالاً بينهم وبين ما يسمعون وما يبصرون وما يعتقدون ، إذ لولا هذه الحيلولة لسمعوا وأبصروا وعقلوا .

وفي هذا فإن التمثيل يكون بإيثار لفظ مجازي على آخر حقيقي كـ«الختم» ومعنى ثالث للتمثيل عندهم ، وهو حمله على الاستعارة التمثيلية التي تشبه بها الهيئات .. وقد نصَّ على ذلك كثير منهم كابن أبي الإصبع إذ يقول في توجيه الآية المذكورة : « ويجوز أن تضرب الجملة مثلاً لصفة أحوالهم كقولهم : سال بهم الوادي - إذا هلكوا ، وطارت بفلان العنقاء - إذا طالت غيبته »^(١) .

ومعنى رابع للتمثيل عندهم هو أن يراد به المثل ، وهذا كثير في القرآن الكريم .. منه قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم: ٥٨) .

* * *

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٦ .